١ كور ١، ١٨ – ٢، ٢

الجمعة العظيمة (في صلاة المساء)

امــــتحان حـــــريّتنا

"لأنّي حكمتُ بألاّ أعرف شيئاً إلاّ يسوع المسيح وإيّاه مصلوباً"

"يا إخوة، إنّ كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، وأمّا عندنا، نحن المخلَّصين، فهي قوّة الله". لقد اختار بولس علانيّة بحريّته ألاّ يعرف شيئاً إلاّ يسوع المسيح وإيّاه مصلوباً!

الصليب هو أكبر امتحان للتاريخ البشريّ. إنّ الحكم على يسوع حَكَمَ على الحريّة البشريّة وكشف معناها. لم يوجد إنسانٌ بارٌّ مثل يسوع، ولم يُحكَم على إنسان تظلماً كما حكم على يسوع. هذا الحدث الظالم هزَّ الضمير البشريّ وسوف يمتحنه إلى منتهى الدهر! سنتأمّل نحن المسيحيّين، اليوم، لا بل كلّ يوم، بصليب المسيح لنفحص بالعمق حريّتنا أمامه! كان حول صليب المسيح لصّان، واحدٌ عن اليمين والآخر عن اليسار. كانت لهما الظروف نفسها المشهد عينه (صلب المسيح)، لكن الواحد جدّف والآخر تاب! هذه هي الحريّة البشريّة. جميعنا نتأمّل صليب المسيح فبعضُنا يتوب وآخرون يهزؤون أو يجدّفون. والصليب معروضٌ أمام الجميع امتحاناً لحريّتنا. صليب المسيح بالأصل هو دعوة للتوبة.

هل الإنسان حرٌّ أم هو مسيَّر؟ هذا هو السؤال العميق! يهوذا هو المثال الأوضح. لقد أعلن يسوع: "لا بدّ أن يُسلم ابنُ البشر"، فلو لم يسلمه يهوذا آنذاك كان سيسلمه آخر، لأنّ الظلمة لا تقبل النور إذ يدينها. وكان لا بدّ للنور من أن يحتمل عداوة الظلمة! نعم ، لكن، يتابع يسوع: "الويل لمن يُسلمُ ابنَ البشر". تقع الشرور في عالمنا، لكن الويل لمن تقع الشرور على أياديهم! لا نؤمن نحن بقضاء أو قدر. إنّنا نؤمن بحريّة الإنسان ومسؤوليّته الواعية.

هناك ثلاث شخصيّات برزت بدورها الهامّ عند آلام المسيح، ويفيدنا أن نتأمّل بها. وهي: يهوذا وبطرس ويوحنّا. الثلاثة كانوا تلاميذَ ليسوع، والثلاثة معاً تعشّوا مع المسيح وسمعوا الكلمات ذاتها، وأخذوا العناية نفسها من المسيح.

الأوّل، يهوذا، لم ينكر المسيح فقط بل حرّر نفسه حتّى من أقل روابط الصداقة، وباع المسيح بثلاثين من الفضّة، هذا ما أملَتْه عليه حريّتُه!

بطرس، قال ليسوع، "أتبعُك حتّى الموت"، ولو أنكرك الجميع لا أنكرُكَ أنا؛ وكان يريد ذلك فعلاً. أراد بطرس، لكن بطرس فشِلَ، وأنكر قبل صياح الديك مرّاتٍ ثلاث. كان له إرادة صالحة لكنّه لم يعمل ما يريده، لقد خاف بطرس وقُهِرتْ حريّتُه الصالحة!

يوحنّا الحبيب، أحبّ المسيح لدرجة لم يخفْ بعدها من أحدٍ، ولم تكسرْ حريّتَه الصالحة أيّةُ صعوبة أو شدّة، بل تابع مع المسيح ووقف تحت صليبه مع الأمّ مريم.

نحن جميعاً نتأرجح بين هذه الأمثلة الثلاثة. البعضُ لا يقيمون في حياتهم أيّ اعتبار للقيَم الروحيّة أو الدينيّة أو الاجتماعيّة... الخ وعلى الأرجح هؤلاء ليسوا مثالاً لنا، نحن المواظبين على الكنيسة.

لكن أغلبنا ربّما كبطرس: نقول ونريد أن نعمل ولكن ما نفتأ نتراجع عند الشدّة. نقول سنتابع لكن عند الامتحان ننكر: نريد لكن لا نعمل الصلاح الذي نريده! لقد جُرِّبَ المسيح عينه بتجربتنا البشريّة هذه. لقد حمل يسوع طبيعتنا بكاملها لكنّه قدَّس حريّته بكاملها! أمّا نحن فنقدِّس جزءاً منها ونُسْلِم أجزاءَ للشرّير منها. لقد تعرّض يسوع لشدّة ما بعدها شدّة، وهناك على الجبل ناظراً الآلام التي تنتظره صار عرقه كالدمّ، وصرخ "يا أبتِ إنْ أمكن فلتعبرْ عنّي هذه الكأس". لكن يسوع هنا لم يخضع للخوف، كما خاف بطرس من جارية، وتابع: "لكن لا تكنْ مشيئتي بل مشيئتُك". هذا هو المثال الذي يجب أن نقتدي به. فمهما قست الظروف نضع حريّتَنا وخياراتِنا تحت تصرّف الإرادة الإلهيّة وليس تحت إرادة بشرتنا التي تحرّكها دوافعُ عديدةٌ كالمصلحة والخوف وكلُّ ما هو أنانيّ! "لا تكنْ مشيئتنا بل لتكنْ مشيئتك يا ربّ"، هذه هي الصلاة الحيّة التي يجدر بنا أن نتمسّك بها كلّ حين.

ويوحنّا الحبيب كان مقتدياً بسيّده فصار مثالاً ناجحاً لنا. كلّنا نحبّ المسيح، لا بل وكثيراً. لكن البليّة العظمى أنّنا لا نحبّ المسيح وحده بل نُشرِك في حبّه كثيرين غيره. نحبّ المسيح لكنّنا نخاف بالأكثر أن نخسر حبّاً لسواه، وعندما يتنازع الحبّان اللذان فينا يسقط، للأسف أحياناً، حبُّ المسيح!

كان يوحنّا الحبيب يخاف شيئاً واحداً، وهو ألاّ يكون عند صليب المسيح، أو أن يترك مَن أحبّ للنهاية يتألّم وحده! كان بطرس يحبّ المسيح ويرغب بالبقاء معه، لكن خوفه فاق حبّه!

نحن نحبّ الله كثيراً ولكنّنا لا نحبّه أكثر من كلّ شيء. مَن يحبّ الله ويحبّ مثله أشياء أو أشخاص آخرين معه لا بدّ أنّه سيسقط في التجارب. لأنّ جهات عديدة تتقاسمه وتشدّه إليها، لأنّه غير حرٍّ بل هو عبدٌ للأشياء. الحرّ هو مَن يحبّ الله فقط وفوق كلّ الأشياء وهو مَن يقوى على غواية الأشياء تجاه محبّة الله.

هذا هو سرّ الصليب: ألاّ نعرف شيئاً فوق يسوع المسيح وإيّاه مصلوباً. الصليب يطهّر الحبّ فينا فيجعل حبّ الله أعظم من حبّ الدنيا. دون الصليب الحبّ فاشل.

يوحنّا الحبيب رمزٌ لنا في حريّة العفّة والبتوليّة. وما هو المعنى العميق للعفّة والبتوليّة، أهو إلغاء الحبّ، حاشى! بل هو تنقية الحبّ البشريّ بحيث لا يشارك ويُشرِك قلبُنا في محبّة الله محبّةَ أشياء أخرى! مَن أحبّ أباً أو أمّاً... أكثر منّي فهو لا يستحقّني! لم يوصِ أحد بمحبّة الآخرين كما أوصى يسوع، وجعل كلّ الناس إخوة في المحبّة. لكن فوق الجميع علينا أن نحبّ السيّد، وهذه هي العفّة الحقيقيّة، إنّها تحرّرنا. تبع يوحنّا المسيح حتّى الجلجلة لأنّه كان حرّاً، إذ حرّره تفوّقُ حبّه للمسيح على أيّ حبٍّ آخر. أمّا نحن، فإنّنا نتبع المسيح إلى حين تتهدّد بعض المصالح التي نفضِّلُها، وللأسف، على محبّتنا للمسيح!

كيف نكون أحراراً؟ يجيب الربّ يسوع بوضوح على هذا المطلب الأنثروبولوجيّ العميق ويقول: "اعرفوا الحقّ والحقّ يحرّركم". مَن يحبّ كلّ شيء بمقدار ما يحبّ السيّد يدلّ على أنّه لا يميّز الأمور ولا يعرف ما هو الأحقُّ بينها ويجهل الحقيقة إذن. "أنا هو الطريق والحقيقة والحياة"، أعلن الربّ يسوع. مَن يجهل هذه الحقيقة سيحبّ مع يسوع ومثله الكثير من الأمور، فكما يخشى أن يترك يسوع سيخشى أن يترك سواه، ولطالما سيترك يسوع يمضي إلى آلامه وحيداً ويسلك هو درب الهروب.

صلبُ يسوع يمتحن حريّتنا البشريّة. صليب المسيح يضع دائماً قراراتنا أمام الامتحان. "لتكنْ مشيئتك ولا تكنْ مشيئتي"، هذا يعني أنّنا نحب اللهُ بقلب عفيف كقلب يوحنّا البتول وسنبقى نتبع يسوع إلى الجلجلة، لنقوم معه ونقوم أيضاً بقيامته، آمين.